تاريخ
عبدالرحمن الصالح
الــبـســام

منقول من كتاب
خزانة التواريخ النجدية

جمع وترتيب
عبدالله بن عبدالرحمن البسام

الجزء الخامس

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ

دار العاصمة

جمع وترتيب وتصحيح

سماحة الشيخ

عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام

عفا الله عنه وعن والديه وعن جميع المسلمين

الطبعة الأولى

الجزء الخامس

تاريخ عبد الرحمن الصالح البسام

تـألـيـف

الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن صالح بن حمد بن محمد البسام

(١٣٠٣ ـ ١٣٧٣هـ)

ترجمة المؤرخ

الشيخ عبد الرحمن بن صالح بن حمد البسام

(١٣٠٣هـ ــ ١٣٧٣هـ)

الشيخ عبد الرحمن بن صالح بن حمد بن محمد بن حمد البسام، وآل بسام سكان عنيزة أسرة كريمة شهيرة ينتهي نسبها إلى الوهبة من بني تميم، وهو والدي أنا محرر هذه التراجم.

وجدّ المترجَم (حمد)، الذي بأعلى النسب هو الذي قدم مدينة عنيزة من بلدة حرمة في سدير عام ١١٧٥هـ واستوطنها وانتشر أحفاده فيها، وبقية نسب المترجم وأخبار أسرته يعرف من تراجم أحد أفراد أسرته من هذا الكتاب، وعلى الأخص من ترجمة والده الشيخ صالح.

وُلد المترجَم في بلد أسرته مدينة (عنيزة) في ١٣٠٣/٢/٢هـ من والدته نورة بنت محمد بن عبد العزيز بن حمد بن بسام، ونشأ المترجَم في بيت فضل وشرف وغنى، فلما بلغ سن التمييز دخل في كُتَّاب المربي (عبد العزيز بن سليمان آل دامغ)، الذي هو في الدور الأرضي من منارة جامع عنيزة الأثرية الآن، وأخذ عنه القرآن الكريم ومبادىء الكتابة، وللمترجم مذكرات كتبها عن نفسه وعن غيره.

استمر في طلب العلم على ثلاث جهات:

١ ـ الشيخ المقرىء عبد العزيز آل نفيسة الشهير بالخبراوي، هذا بدراسة القرآن الكريم، لتعديل قراءته وحفظه عن ظهر قلب، ومعه أخوه محمد وكثير من زملائهما، ووقت قراءتهما آخر الليل إلى أذان الصبح، وقد ذكرنا أسماء بعض هؤلاء الشباب الصالح في ترجمة الشيخ عبد العزيز آل نفيسة الشهير بالخبراوي.

٢ ـ الشيخ الفقيه محمد بن عبد الكريم آل شبل، وهذا قرأ عليه بالفقه، ومن زملائه عليه الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي.

٣ ـ الشيخ عبد الله بن عائض، هذا العالم الضليع بعلوم اللغة العربية، فقرأ عليه بالنحو.

وهكذا حفظ القرآن الكريم، وحفظ بعض متن (دليل الطالب) للشيخ مرعي الكرمي، وحفظ نظم الآجرومية في النحو المسمى (العمريطية)، وكان مع شقيقه الشيخ محمد بن صالح البسام وزملائهما ملازمين دروس الشيخ محمد بن شبل، حتى صار لهم مدخل في الفقه.

ولما دخلت سنة ١٣٢٢هـ حصل فتنة في مدينة عنيزة انتقل على أثرها إلى مكة المكرمة، وأدى فريضة الحج، وبعد الحج انتقل إلى جُدَّة، فأقام فيها نحو أربعة أشهر، استغلها بالقراءة على الشيخ السلفي عبد القادر التلمساني، فقرأ عليه وتعرف في حلقة درسه على الشيخ محمد بن حسين نصيف، فصارت تلك المعرفة صحبة أكيدة بينهما إلى نهاية حياتهما، والمراسلة لم تنقطع، وعندنا ـ الآن ـ جملة من رسائل الشيخ محمد، كما يوجد لدينا مجموعة من الكتب هدايا من الشيخ نصيف.

ثم إن المترجَم بعد الإقامة بجدة سافر عن طريق البحر من جدة إلى البصرة والزبير، وفيهما يومئذٍ أبوه وبعض أسرته آل بسام قد استقاموا في الزبير والبصرة مبعِدين أنفسهم عن تلك الفتن والحروب التي جرت في ذلك الزمن بين الملك عبد العزيز آل سعود وبين الأمير عبد العزيز آل رشيد.

أما المترجم فبقي فيما بين البصرة والزبير يطلب العلم، فقرأ على الشيخ محمد بن عوجان وعلى الشيخ عبد الله آل حمود وعلى الشيخ الدداغي، فصار له مشاركة في العلوم الشرعية والنحو.

وممن كان في البصرة جدي لأمي الوجيه منصور الصالح أبا الخيل، فقام جدي لأبي (صالح) وطلب من جدي لأمي ابنته (مضاوي المنصور) لتكون زوجة لأبي ـ المترجَم ـ فأعطاه إياها، وأجروا عقد القران في البصرة، والزوجة مقيمة في عنيزة.

وفي عام ١٣٢٩هـ عاد جدي (صالح) من البصرة إلى عنيزة، وعاد معه عدد من أفراد أسرتنا البسام، ومنهم والدي عبد الرحمن (المترجَم)، وبعد وصولهم من البصرة إلى عنيزة دخل على والدتي، وذلك في عام ١٣٣٠هـ ورزق الله منها عددًا من الأبناء والبنات، توفوا في صباهم وطفولتهم، ولم يبق منهم الآن ـ إلاّ محرر هذه التراجم ـ وشقيقي الشيخ صالح بن عبد الرحمن البسام حفظه الله تعالى.

وقد اشتغل المترجم من عام ١٣٣٠هـ بالفلاحة في عنيزة، ولم يتابع طلب العلم إلاّ مطالعاته الخاصة، فهو يحب القراءة لا سيما في التاريخ والأنساب والأدب، وعنده (دولاب) كُتب، وأكثرها من كتب الفقه وعلوم اللغة العربية، وفيها شيء من كتب التاريخ.

والذي نحدد به معلوماته، هو:

١ ــ حفظه للقرآن الكريم على ظهر قلب حفظًا جيدًا.

٢ ــ مشاركة في العلوم الشرعية لا سيما الفقه وفي مبادىء النحو.

٣ ــ يجيد تعبير الرؤيا، فلا يخطىء تفسيره لها.

٤ ــ اطلاع واسع على التاريخ القديم والحديث، ومعرفة بالأنساب.

٥ ــ الحفظ الكثير للأشعار العربية والعامية، فهو يورد القصيدة الطويلة من حفظه، مع بُعْد عهده بها، وهو جيد الحفظ، وإذا حفظ فلا ينسى، وكان يقرأ بعض الفصول من مقدمة (ابن خلدون) لكنه انشغل عن الناس ومجالستهم طيلة بقائه في الفلاحة.

وفي آخر أيامه ترك الفلاحة واستقر، وصار له مجالس مع أعيان عنيزة، لا سيما المثقفين فيها، فعثروا منه على كنز في معارفه التاريخية، فصاروا يحرصون على مجالسته في منزله أو في منازلهم، لأنه يعمر المجلس بالأخبار وإيراد القصائد الممتعة، لكن لم تطل هذه المدة لقرب وفاته. رحمه الله تعالى.

وعندي له ثلاث رسائل جمعتها لإخراجها في كتاب واحد مع اختلاف مواضيعها:

١ ــ إحداها: تقويم في الحساب الفلكي ألفه في الزبير.

٢ ــ تاريخ مختصر عن مدينة عنيزة وما جرى فيها من أحداث.

٣ ــ مفكرات جيب يقيد فيها كل ما يمر عليه من فوائد عامة، سأطبعها إن شاء الله تعالى للفائدة ولإحياء ذكره بها.

وفـاتـه :

كان صحيح الجسم قوي البدن، وهو في التاسعة والستين من عمره، فأصيب بمرض مفاجىء لم يمهله إلا ستة أيام، حتى توفي، وأظن أنه مرض الزائدة، ولكن عنيزة في ذلك الوقت ليس فيها مستشفى ولا أطباء.

ووفاته في عنيزة صباح الأحد ٨/٣/١٣٧٣هـ، ودفن في مقبرة الشهوانية. رحمه الله تعالى.

* * *

الحمد لله والصلاة والسلام على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد: فإن والدي ــ عبد الرحمن بن صالح بن حمد البسام رحمه الله تعالى ــ ألّف نبذةً تاريخيةً مختصرةً عن تاريخ مدينة عنيزة، وعن تاريخ ما وقع لأهل القصيم من المعارك الحربية مع غيرهم من حكومتي آل سعود وآل الرشيد، ولكنه يشير إليها إشارةً خاطفةً إلاَّ ما كان من معركة الطرفية فقد أطال فيها لأنه عاش أحداثها.

وقد كتب هذه النبذة التاريخية في صباه فجاءت غير وافية بالمقصود. وقد ألحقت معها بعض الهوامش التي أغلبها مما لم يذكره المؤرخون، وقد استقيته من أفواه الثقات. ومن تلك الهوامش أنني سقت أسماء قتلى المليدي من مدينة عنيزة، فذكرتهم مع ما توصلت إليه من التعريف بهم. فجاءت هذه الهوامش مكملة لهذه النبذة التاريخية، وعمل الولد امتدادًا لعمل أبيه.

ونسأل الله تعالى للوالد الرحمة ولنا التسديد في القول والعمل، وأن

بدبم علينا وعلى إخواننا المسلمين نعمة الإيمان والأمان، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد وعلى آل وصحبه أجمعين.

كتبه

عبدالله بن عبدالرحمن آل بسام

هوامش غزوة بقعاء عام ١٢٥٧هـ

* حرب بين عبد الله بن رشيد بقيادة أخيه عبيد ، وبين أهل القصيم ، وصارت الهزيمة على أهل القصيم .

* بعد انتهاء المعركة وحصول الهزيمة جاء وجعان الرأس أحد شيوخ شمر إلى يحيى آل سليم أمير عنيزة فقال له خذ فرسي وانج عليها فامتنع وقال أرغب مقابلة عبد الله بن رشيد فأوصله إياه فاستقبله وأجلسه بالقرب منه . وفي أثناء جلوسهما جاء صبي من أبناء عبد الله يبكي ويقول قتل عمي عبيد فانفعل عبد الله بن رشيد واشتد غضبه وأمر بقتل يحيى السليم ثم تبين أن عبيدًا لم يقتل وإن المقتول أخ لهما من الأم .

* يحيى السليم حامل معه ابنه عبد الله آل يحيى في المغزى وعمره ستة عشر سنة فوجده أثناء المعركة وحده دجينى من العبيات من قبيلة مطير فهرب به إلى عنيزة فكافأه آل سليم على ذلك بأن خصص له مهنة سرح القاع يقوم بها ويستلم أجرتها لا يزاحمه أو يشاركه فيها أحد فبقيت هذه الوظيفة فيه وفي أحفاده وأدركت منهم حفيده عبيلان بن محمد بن دجينى ولا تزال فيهم فهم أصحاب هذه الوظيفة وصفة هذه الوظيفة أن الإبل التي في عنيزة المعدة للتجارة تسرح في الصباح وتعود مع العصر للبيع وهو الذي يتولى السرح بها أو من ينيبه فيها .

هوامش معركة الغريس

* الغريس: هو الملقى الواقع في الجوي الواقع عن عنيزة شمالاً بمسافة نحو عشرة كيلوات تقريبًا. كان المكان ذلك الزمن غريسًا صغارًا جديدًا، غرسه رشيد آل دغيثر، ويسمى الآن (الملقى).

* المعركة في صباح اليوم الخامس من رمضان عام ١٢٦١هـ.

* المغير: هو عبيد بن رشيد بأهل حائل على غنم أهل عنيزة لتكون سببًا لخروجهم إليه، وإلاَّ فالغنم ليست غايته ومقصده.

* سبب الغارة: أن أهل عنيزة بقيادة أميرها عبد الله السليم غزوا بلدة قفار وما حولها من قرى حائل، فأخذوا مواشيهم التي غالبها البقر.

* أراد عبد الله بن رشيد الانتقام منهم لغزاهم بجنوده بقيادة أخيه عبيد بن رشيد.

* حين غزا عبيد بن رشيد بلدة عنيزة أحكم الخطة فأهاجهم بأخذ غنمهم السارحة في الصباح المبكر ـ والوقت هو في صباح رمضان ليخرجوا فزعين مبهوتين من غير تعبئة ـ ، والمغير عليهم مجهول فقد جاءهم خفية ـ وجعل كمينًا في أحد منخفضات الرمال ليأتيهم من خلفهم

حينما ينشب القتال، فنفذت هذه الخطة وصارت المعركة دائرةً على أهل عنيزة، وحصل فيهم مقتلةٌ كبيرةٌ.

* القتلى ما بين الثلاثين والأربعين قتيلاً من أهل عنيزة، والمعروف منهم هم:

١ ـ الأمير عبد الله السليم ـ هو أمير عنيزة، وهو والد أمير عنيزة زامل العبد الله.

٢ ـ محمد السليم: أخو الأمير وحفيد هذا القتيل سليم المحمد، الذي قتل في عنيزة غيلة عام ١٣٥١.

٣ ـ عبد الرحمن السليم: الأخ الثاني للأمير، شابٌ لم يتزوج.

٤ ـ عبد الرحمن الذكير والد الوجيهين ـ مقبل العبد الرحمن وأخوه يحيى العبد الرحمن الذكير.

٥ ـ محمد الشعيبي: حفيده كان تاجرًا من تجّار البصرة المشهورين.

٦ ـ محمود الخنيني من أسرة معروفة في عنيزة.

٧ ـ إبراهيم بن عمرو، وهو الذي بقيت كتابة اسمه على قبره إلى زمن قريب.

* جيء بالقتلى على الإبل إلى عنيزة ودفنوهم في المقبرة المسماة الطعيمية، وصارت قبورهم جميعًا بالجهة الشمالية منها، مقابل لباب المزرعة المسماة السعيدي رحمهم الله تعالى.

* نقل لنا الثقات أن أحد رعاة الوجيه محمد العبد الرحمن البسام أخبره

بأنه مر في طريقه فوجد عبيد بن رشيد وجنوده ليلة صبح الغارة في الرمال المسماة اليتيمة الواقعة في الشمال الغربي من عنيزة، والواقعة عند مزارع دمشية فأرسل محمد العبد الرحمن البسام إلى الأمير عبد الله السليم وأخبره وحذره، فما كان من جوابه إلاّ أن قال: الحمد لله الذي قربهم منا ولم يحوجنا للذهاب إليهم، ولم يهتم بالأمر وبعد له عدته.

* المشهور أن آل سليم الثلاثة قتلوا صبرًا بعد القبض عليهم. وهذا إسراف من عبيد بن رشيد بأسراه.

* بعد قتل أمير عنيزة في هذه المعركة تولى إمارة البلدة أخوه إبراهيم السليم حتى عام ١٢٦٣هـ حيث قتل بيد مطلق السحيمي أخو أمير عنيزة ناصر بن عبد الرحمن السحيمي.

* * *

* هي بين أهل عنيزة وبين محمد الفيصل قائد الأبيه.

* ثم بعد المعركة امتد الحصار على عنيزة، ومعه عامة أهل نجد حاضرة وبادية بما فيهم أمراء حائل آل الرشيد، وصارت القيادة لعبد الله الفيصل.

* سببها أن الإمام فيصلاً قد جعل أخاه جلويًا أميرًا في عنيزة وملحقاتها، فتصرف تصرفات غير مرضية، فكان أهل عنيزة يرفعون عنه إلى الإمام فيصل، ولكن كتبهم لم تعرض عليه، فظنوا أن ذلك إهمال منه فغضبوا على إمامهم.

* وعدهم قاضيهم الشيخ عبد الله أبا بطين أنه يذهب إلى الإمام فيصل ولا يعود منه إلاّ بقرار عزل الأمير جلوي فرفضوا وساطته.

* الذي أراه أن أهل عنيزة واثقون من نجاح وساطة الشيخ أبا بطين في عزل جلوي عنهم، ولكن المتزعم لشق عصا الطاعة هما: عبد الله بن يحيى آل سليم، وابن عمه زامل بن عبد الله آل سليم، طمعًا منهما في إمارة البلاد، لأنه مترجح لديهما أن الإمام فيصلاً إذا عزل جلويًا سيجعل غيره أميرًا ممن حوله.

* امتدت هذه الغزوة بخلافها ومعاركها وحصارها من أول عام ١٢٧٨هـ، وانتهت بالصلح عام ١٢٨٠هـ.

* كان النصر في أول المعركة لأهل عنيزة ولكن كان سلاحهم بنادق الفتيل، فجاء المطر فأخمده فصارت الدائرة عليهم أخيرًا، وقتل منهم نحو أربعمائة.

* وبما أن رؤساء أهل عنيزة سلموا من القتل، فإنهم بقوا على استقلالهم ولم يستسلموا، ولم يعودوا إلى الولاية إلا بقرار صلح بينهم وبين الإمام فيصل.

* من الفرسان البارزين في هذه المعركة، الأمير زامل العبد الله آل سليم، والوالد صالح الحمد البسام، وعائد بن محمد التميمي، وزامل في ذلك اليوم لم يلي الإمارة.

* كان جدنا صالح الحمد البسام له دورٌ كبيرٌ في معركة المطر هذه، فقد كان سلاحه الرمح والسيف، وكان على فرس أصيل فحمى طائفةً كبيرةً من المنهزمين، وأنقذ أفرادًا منهم بنقلهم من مكان المعركة.

* طال حصار عبد الله الفيصل على عنيزة إلا أنه لم يحصل على شيء وركب المدفع على البلاد من الجبل المطل عليهم المسمى مرقب الرافع الذي مكانه الآن مركز بن صالح فرمى أهلُ عنيزة الرامي بالمدفع من وراء السور المقابل لمكان المرقب المسمى البابية، فقتلوا منهم اثنين، مما اضطر عبد الله الفيصل إلى التقهقر عن

ذلك المكان، والبندق التي رمى بها هي بندقية الخياط التي يقول فيها:

لي بندق ترمى اللحم لو هو بعيد

ما وقفت بالسوق مع دلالها

* عندي خطاب من محمد العلي البسام التاجر بالهند رحمه الله تعالى، يقول فيه: أن والده: علي العبد الله البسام لما بيعت تركة علي الخياط رحمه الله تعالى اشترى هذه البندق: ومحمد العلي البسام قلبها وعدلها من كونها فتيلاً إلى مقمع، وأنه استعملها فترة إقامته في عنيزة للصيد حتى سافر إلى الكويت ثم إلى الهند.

* وإن هذه البندق الأثرية الكريمة توجد عند عبد العزيز وصالح ابني عبد الرحمن المحمد البسام، وأنا أذن عليهما حفاظًا على هذا التراث الثمين أن يضيع.

* قتل من أهل عنيزة نحو أربعمائة قتيل، ولكن التاريخ لم يحفظ لنا أسماءهم، وإنما أسرتنا حفظوا أسماء قتلى أسرة البسام، وهم تسعةٌ، وقتل من أسرة آل التركي خمسة وقتل عدد من أسرة آل القاضي وأنا أذكر أسماء قتلى البسام لأني أعرفهم. فقتلى البسام هم:

١ ــ محمد بن عبد العزيز الحمد البسام، وهذا جد بيت آل عبد العزيز البسام.

٢ ــ عبد المحسن بن عبد الرحمن البسام، وهذا جد بيت آل عبد المحسن العبد الرحمن البسام.

٣ ــ محمد الحمد المحمد البسام، وهذا عم والدي وليس له عقب.

٤ ــ عبد الله العبد العزيز البسام: ثلاثة أخوة، ولم يعقبوا فقد قتلوا شبابًا ووالدهم: عبد العزيز السليمان البسام.

٥ ــ محمد العبد العزيز البسام.

٦ ــ صالح العبد العزيز البسام.

٧ ــ عبد الله بن إبراهيم السليمان البسام ابن عم الثلاثة الذين قبله ولم يعقب.

٨ ــ عبد العزيز المحمد العبد الرحمن البسام.

٩ ــ علي السليمان المحمد البسام.

* جنود عبد الله الفيصل تسرروا جدار حوطة محمد علي ــ التي مكانها مكتب النقل الجماعي ــ أثناء الحصار يظنون أنها سور البلدة، فدخل فيها جماعةٌ كبيرةٌ منهم، فوجدوا سور البلدة أمامهم، فدخل عليهم أهل عنيزة فقتلوهم عن آخرهم فمدافنهم إلى عهد قريب توجد في هذه الحوطة.

* رجال أهل عنيزة حين حصارها أكثر من عام هم ١٥٠٠ (ألف وخمسمائة) رجل فقط، والمحيط بهم كل أهل نجد من بادية وحاضرة. وشاعر عنيزة يتحداهم فيقول:

الشيخ مثلك ما يحايد من بعيد

يقلط على الديرة يهدّ جدارها

* * *

هوامش وقعة المليدي

* آل بسام في عنيزة ليس بينهم وبين آل سعود أي خلاف، بل هم أكمل ما كان عليه من الصفا والوفاء. وعندنا مكاتيب الإمامين تركي وابنه فيصل فيما بينهما وبينهم، وكذلك الإمام عبد الله الفيصل كان يستقرض منهم حاجته، كما أنهم ليس بينهم وبين آل سليم أمراء عنيزة أي خلاف، فهم متعاونون على الدفاع عن البلاد. والذي قتل من آل بسام تسعة رجال في حرب المطر عام ١٢٧٨هـ مع قلة أسرة آل بسام في ذلك الوقت.

* وإنما دب الخلاف بينهم حينما عزم الأمير زامل العبد الله السليم أمير عنيزة على أن يشارك حسن المهنا في الحرب ضد ابن رشيد عام ١٣٠٨هـ. فآل بسام لم يروا الدخول في هذه الحرب التي لم توجه إلى عنيزة، وإنما وجهت إلى حسن المهنا فقط.

* كانت العلاقة ممتازة فيما بين محمد بن رشيد وبين حسن المهنا، فابن رشيد كف عن حسن غارتين شنهما عبد الله الفيصل ضد حسن بعد أن ضرب الحصار على بريدة ولم ينقذه منه إلاّ الله ثم ابن رشيد.

* ومحمد بن رشيد هو الذي يقدم الدفوعات والهدايا في تزويج أبناء حسن. وهو الذي أمده بالسلاح، وهو الذي أصلح له قصر الإمارة في بريدة وغير ذلك، فاعتبره حليفًا له وكان حسن ملازمًا له في غزواته، ويأخذ نصيبه الأكبر من مكاسب الغزو.

* سبب معركة المليدي أن هذه العلاقات الطيبة بين محمد بن رشيد وبين حسن المهنا أوحت إلى ابن رشيد أن يجس نبض حسن في صدق الموالاة، فأرسل عمال الزكاة إلى أطراف القصيم فطردهم حسن بعنف وقسوة وألفاظ نابية قاسية، ثم أخذ حسن يشن غارات على الوشم وسدير ليضم بعض أجزاء نجد إلى إمارته في بريدة، وصار محمد بن رشيد يراسله بلطف وهو يرد عليه بعنف شاعرًا باستقلاله وضم بعض أجزاء إلى إمارته.

* اشتد غضب محمد بن رشيد على تصرفات حسن بعد الوفاء والصفاء، فعزم على غزوه في بلده وتأديبه. فلما علم بذلك حسن صار يحسن العلاقات مع أمير عنيزة زامل بعد أن كانت العلاقات بينهما سيئة جدًا.

عقد حسن وزامل مؤتمرًا في الغميس فيما بين البلدتين وحضره بعض أعيان البلدتين بريدة وعنيزة، وأجريا اتفاقية على أنهما يدٌ واحدةٌ ضد كل عدو لهما أو لأحدهما ولا سيما آل الرشيد.

* علم ابن رشيد بتكتل أهل القصيم جميعهم ضده، فصار يكتب إلى زامل أنه ليس له طمع في بلده عنيزة، وإنما مراده تأديب حسن الذي لم يشكر نعمته عليه وصار يحذره من مغبة الدخول في الحرب لئلا ييتم أطفال أهل عنيزة ويرمل نساءهم. ثم صار يكتب للبسام لينصحوا زاملاً

بعدم التورط في الحرب، وأن البسام كفلاء عليه بأن لا يمس زاملاً ولا بلاده بما يكره.

* بذلت المساعي من ابن رشيد ومن البسام ليكف زامل عن الدخول في الحرب، إلاّ أن زاملاً لم يستجب لذلك ويتهرب عن الإجابة بأعذار واهية، فتارة يقول أنا لم أخرج للحرب وإنما أخرج للإصلاح بين الطرفين، وتارة يقول: إذا فرغ ابن رشيد من حسن عاد إلينا. وهي أعذارٌ غير وجيهة مع ملابسات الأمور وتأمّلها:

* في هذه الأثناء كان شاعر المجمعة محمد بن هويدي يقول قصيدته التي يوجه فيها الكلام إلى حسن المهنا، ومنها:

ما طعت شور اللي تنكسك جنوده

إلى جاك جاه الشيخ سيدك وسيدي

لولا محمد يا حسن صرت شوده

ما أحد قبالك فك حدب الجريد

وزامل تفرد نفشة في فروده

هو يحسبه خالد بن الوليد

* زامل من دهاة الرجال وحسن ليس ندًا له في ذلك فلا يستطيع أن يخدعه في الدخول في حرب ليس له فيها مأرب. وإنما مراد زامل في الدخول في هذه الحرب هو أن له ثأرًا عند آل رشيد، فوالده وعماه محمد وعبد الرحمن قتلوا في الغريس وعمه يحيى قتل في بقعاء، فهؤلاء أربعة أمراء من آل سليم عند الرشيد، وهذا القصد الذي حمله على الدخول في الحرب. وبهذا أجاب زامل جدي صالح الحمد البسام

حينما سدد عليه أعذاره بالخروج للحرب. فقال بالنص: الرشيد عندهم شفايانا نريد أن نأخذ ثارنا منهم فأجابه الوالد صالح بقوله: شفاياك وشفاياهم تنابلوا عند حكم عدل يحكم بينهم ولكن لم يستجب، وبهذا الثأر عير ابن هويدي زاملاً بقوله:

أبـوك وأعمـامـك غـدوا بـالطعـاميـس

يـا حيفـا راحـو لاجـالـيـم ثـار

جوابًا من ابن هويدي على قصيدة لزامل يتوعد بها أهل سدير، فيقول فيها:

إن سلـم راسـي لـدهـج الغـاط والخيـس

بيـسـارق تـسـاطـا الخفـي والبيـان

فهذا هو الذي دفع بزامل للدخول في هذه الحرب حينما رأى هذا التجمع الكبير فرجًا أن يدرك ثأره في هذه الحرب.

* موقف أسرة البسام من دخول عنيزة في هذه الحرب هو عدم الدخول في ذلك، لأمور:

١ ــ الرغبة في السلامة وعدم التورط في حرب لا تعلم نهايتها.

٢ ــ ابن رشيد لم يقصد بلادهم ولم يردها، وإنما قصد حسن المهنا لغرض معلوم، وبهذا فدخول عنيزة في الحرب اعتداء لا مبرر له.

٣ ــ عند البسام يقين من وفاء ابن رشيد بوعوده من أنه لم يقصدهم وأن يدع لهم بلادهم، لا سيما وقد جعل البسام كفلاء بالوفاء بوعده.

٤ ـ على فرض أن ابن رشيد لم يف بوعده وقصدهم فعندهم القدرة على الصمود لحصاره مهما طال فقبل نحو ثلاثين سنةً صمدوا لحصار عبد الله الفيصل، وهم أقل من يومهم هذا عددًا، وعدوهم ضرب عليهم الحصار بأهل نجد كلها حاضرها وباديها. والبسام نبهوا زاملاً إلى هذا ووعدوه بالوقوف معه مع بلدتهم وجماعتهم، ولكن زاملاً صمم على الغزو.

* وصل ابن رشيد إلى أطراف القصيم الشمالي، فوجد أهل القصيم متحصنين في كثبان قرية الشقة تلك الكثبان العالية التي حصنتهم وحمتهم بإذن الله، فلا مجال للمشاة ولا مجال للخيل فيها.

* نزل ابن رشيد أسفل منهم ليس له بهم قدرةٌ والأمداد تفد إليه فكان من الوفود ابن سويط شيخ قبيلة الظفير، فيقال: إنه قال له: أهل القصيم شجعان ولكن لا رأي لهم في الحروب، فأنت ناوشهم الحرب وانسحب كأنك منهزمٌ فإنهم سيتبعونك حتى تخرجهم من مخابئهم إلى البراري.

* فعل هذه الخطة ـ والحرب خدعة ـ وانهزم أمامهم وصار الخفاف من أهل القصيم يحض بعضهم بعضًا على اللحاق به قبل أن يبتعد عنهم. أما زامل وجماعته فلم يخف عليهم مقصده وصاروا (يصيحون) في المخدوعين لئلا ينساقوا خلفه وينبهونهم أن هذه خدعةٌ، ولكنهم لا يلتفتون إليهم ويرمونهم بالجبن وبأن البسام أثروا عليهم بكتبهم إليهم فما كان منهم إلاَّ أن ساروا معهم متمثلين بقول دريد بن الصمة:

أمـــرتهـــم أمـــري بمنعـــرج اللـــوى

فلـم يستبينـوا الـرشـد إلا ضحـى الغـد

وهـل أنـا إلا مـن غَـزيـة إن غـوت

غـويـت وإن تـرشـد غَـزيـة أرشـد

ساروا خلفه فوجدوه قد أرسى أثقاله في شمالي المليدي فنزلوا هم في جنوبيها، وذلك قرب الزوال من يوم السبت ١٣٠٨/٦/١٣هـ، يقول المشاهدون: إن أهل القصيم يصلون الظهر والعصر جمعًا وقصرًا فرادى وجماعت عند أول نشوب الحرب.

* حينما انتهى مسير أهل القصيم إلى جنوبي المليدي كان الأمير زامل واقفًا في الميدان وبإزائه خيل ابن رشيد، فأراد أن يظهر لمن حوله عدم المبالات ويزيل عنهم المهابة فقال: هذه بقر أهل الخبوب وكان على جانبيه: منصور العبد الله الزامل، وعثمان المضيان فقالا له: هذه خيل ابن رشيد كفانا الله شرها.

* التحمت الحرب من زوال ذلك اليوم ولم تطل حتى صارت الهزيمة المنكرة الساحقة على أهل القصيم وقتل أمير عنيزة والعدد الكبير من رجالهم، وطاح في المعركة رجال كثيرون من أسر معروفة في عنيزة فكانت معركة مشؤومة فقدوا فيها زعماءهم وفقدوا استقلالهم وفقدوا أمنهم وأدخلوا الحزن العميق والأسى العام في كل بيت، ولا تزال الذكرى المريرة للمليدي في نفوس أهل القصيم لا سيما أهل عنيزة الذين استحر القتل فيهم.

* في نظري لو أن الإمام عبد الرحمن الفيصل حث السير إلى أهل القصيم فوصل إليهم قبل اشتباك الحرب، فلربما تغيرت المواجهة بين الطرفين ذلك بأنه سيوحد قيادتهم فيه وسيسلمرا من اللحاق بابن رشيد إلى رض المليدي النسيحة. ولعله يدخل بصلح بين ابن رشيد وبين حسن المهنا. ولكن المقدر كائن والله المستعان.

* خسائر أهل عنيزة بالقتلى أثناء المعركة ليس كبير أو إنما كبر حينما استسلموا وألقوا سلاحهم وصارت خيل ابن رشيد تتبع فلولهم المتفرقة بالقتل.

* حينما صارت الهزيمة عثرت فرس خالد العبد الله السليم والد الأمير عبد الله الخالد، فصار واقفًا عندها ينتظر لعله يجد أحدًا من أهل الخيل المنهزمة يحمله معه، وإذا بعبد العزيز المحمد المهنا على فرسه منهزمًا فصار يناديه ويقول: يا عبد العزيز احملني معك، فأنت تراني لا تقل ما رأيته، فردها عليه ليحمله وإذا بخيل ابن رشيد تحيط بهما ويقتلان جميعًا. والعوني الشاعر كان من ندماء عبد العزيز المحمد وجلسائه فقال يرثيه ويذكر هذا الموقف:

يــا واهــج بــالصــدر يــا كــود حــره

لا فــار يضــرب بــالنواظــر شــرارة حــراره

عليــك يــا شــيخ نــزى عــن ظهــره

علــى أيمــن الشقــراء بمــار الــزبــارة

يــا ليتنــي مــا ذقــت حلــوه ومــره

ويــا ليــت يــومــي ســابــق عــن نهــاره

نخـــاه خـــالـــد والـبـــايـــا مصـــره

ورده علـــى خـــالـــد مـــوفـــي جـــوازه

* قد تتبعت أسماء قتلى المليدي من عنيزة فأثبتهم ولم يفتني منهم إلاّ قليلٌ جدًا وسأفردهم ببيان سيمر بنا قريبًا إن شاء الله تعالى.

* الأمير زامل حينما قتل هو في السنة الثانية والستين من من عمره فإن ولادته عام ١٢٤٧هـ وله من الأبناء اثنا عشر ابنًا الذين لهم أحفاد الآن هم: صالح، وعلي، وعبد العزيز، ومحمد، وعبد الله، وإبراهيم: أكبر أولاده عبد الله وأصغرهم إبراهيم، ولا نعلم أنه حضر هنا من أبنائه إلاّ علي وقتل بعده بدقائق. أما صالح فكان عمره بالسادسة عشر، وكان معه ناظورٌ ينظر به إلى المعركة ولم يباشر القتال.

* في اليوم الذي يلي يوم المعركة كان محمد بن رشيد وابن عمه حمود العبيد يمشيان بين القتلى ويتعرفان عليهم إذا بأحد رجال حاشية ابن رشيد يقول له: يا محفوظ هذا زامل، فأجابه الأمير هل هو حي؟ قال: لا، قتيل. فجاءا إليه فوجداه ملقًى على ظهره، شعر رأسه أبيض وله صلعة، وصار محمد بن رشيد يقول لابن عمه حمود: نعم هذا هو أبو عبد الله، ويشير إلى صلعته بعصًا خفيفة ويقول: والله من الدهاء ولكن عند المقادير تعمى البصائر. ثم يقول لحمود: يا حمود ترى زامل حد علينا عنيزة بثمن قبلناها به فهو يقول:

هـــذي عنيـــزة مـــا نبيعهـــا بـــالـــزهيـــد

إلا بـــــروؤس عـــــن محلـــــه زايلـــــه

ونحن قبلنا منه عنيزةَ بالثمن الذي حدها علينا به.

* وجدوا في جيب الأمير زامل خطابًا صغيرًا نصه: من علي المنصور الزامل إلى الأمير زامل العبد الله: أشير عليك بالرجوع بجماعتك عن هذا الوجه، فهو خير لك فإن ابن رشيد مثل راعي سفينتين إن عطبت وحده نجى بالأخرى، فإن عنده الخيل ينجو عليها إن حصلت عليه الهزيمة ولا تحصلون منه ثأركم. فإن لم ترجع عن وجهك فلا تبرحوا عدابن البصر تحميكم من غاراته حتى يمل ويرجع عنكم والسلام فسأل ابن رشيد عن مكانه فقيل: هو درويش بالمسجد، فقال: هذا ليس بدرويش، وإنما هو عاقل داهية.

* * *

مرائي قبيل معركة المليدي

١ ــ كان عند مدخل مسجد الجامع في عنيزة مرقب يشاهدون منه العدو قبل أن يصل إلى أسوار البلاد، فرآه بعض المواطنين في المنام ساقطًا فأول بهزيمة على البلاد.

٢ ــ رأى بعضهم أن دبا أولاد الجراد قد تعلق بالمواطنين من أهل عنيزة. فأول بأنه جند يسلط على أهل البلدة.

٣ ــ ورأى بعضهم ثلاثة أقمار في السماء تصادمت فأحدها سقط في الأرض، والثاني انثلم، والثالث استنار وأبدر وذهب في شمال السماء. فكان الساقط زاملاً، والمنثلم حسن المهنا الذي كسرت يده وسجن، والذي زاد نوره وعظم أمره محمد بن رشيد. وكل هذه المرائي عرضت على زامل ولكنه لم يهتم منها إذا قدر الله تعالى أمرًا كان أمره نافذًا مفعولاً.

* قاتل زامل هو حمد الزهيري من حاضرة حائل، وهو الذي قتل عقاب بن شبنان شيخ برقا من عتيبة في حرب أم العصافير عام ١٣٠١هـ، وذبح غيرهما من الكبار، ويسمى ذباح الشيوخ كان حديد

البصر ويجيد الرماية. وعقاب بن شبنان هو الذي ذكره ابن هويدي في قصيدته بقوله:

أصغــر تقـــايصيـــم عقـــاب ابـــن شِبنـــان

وذبحــوا هــل العـــارض أســـواة البهـــوم

* كان علي الزامل في الأحساء فقدم عنيزة في اليوم الذي قبل معركة المليدي، وقد قدم إلى عنيزة بأخيه عبد الله مختل الشعور، فعزم علي بأن يلحق بالغزو وأشاروا عليه الناس بعدم الذهاب، فصــمم إلاَّ أن يلحق بهم فبات عند أهله تلك الليلة، فحملت منه بابنه سليمان العلي وفي الصباح لحق بالغزو، بإقباله على أبيه بنحو عشرين مترًا فرأى أباه يسقط أمامه من عيار ناري فبينما هو يقلبه إذ أصيب بعيار فسقط عليه. فشهد الحاضرون أنه مات بعد أبيه بنحو ربع ساعة، وورثه، وبجانبهما عبدهما حتيش فسقط عليهما بعيار ثالث. رحمهم الله.

أدركت خالي علي العثمان الخريطر وهو جد معالي الدكتور عبد العزيز العبد الله العلي الخريطر، وفي جبينه ضربة سيف، فحدثني أهلي أنه بينما هو ملق سلاحه يوم المليدي بعد الهزيمة وهارب وحده مع الهاربين إذ لحق به فارسٌ من أتباع ابن رشيد ينتخي ويقول ويكرر: يا ثارات عقاب، والخال علي معه عصا خيزرانه، فجثا على ركبتيه وضرب الفرس في وجهها ضربةً قويةً، فانصرفت بصاحبها نحو مائة متر ثم عاد بها يردد شعاره المذكور. ثم تناول الخال بسيفه مما أحدث له هذه الشجة وما زال يردد عليه الكرة نحو ثلاث مرات أو أربع، فلما آيس الخال من النجاة بآخر كراته رفع أصبعه وصار يكرر الشهادتين،

فقال له الفارس: نجوت اركب أزينك. فقال له الخال علي: يكفي أن تتركني، فتركه والليل مقبل فنجّاه الله تعالى.

* بعد ثلاثة أيام من المعركة انتقل ابن رشيد من المليدي، ونزل الرفيعة شرق مدينة بريدة فيه بساتين عامرة لحسن المهنا أمير بريدة سابقًا. فخيم هناك وصارت الوفود تأتي إليه هناك للسلام عليه، وممن أتاه أسرة آل بسام من عنيزة مع كبيرهم عبد الله العبد الرحمن البسام. فخاطب ابن رشيد العم عبد الله بقوله:

يا عم عبد الله من ترغبون يكون أمير لكم، فاستعجل الخال حمد المحمد العبد الرحمن البسام وقال: نرغب عبد العزيز الزامل. فرد عليه محمد بن رشيد ردًا خشنًا. وانقطع البحث في ذلك المجلس فلما عاد آل بسام إلى مخيمهم عاتب العم عبد الله ابن أخيه حمد المحمد بقوله:

١ ـ كلام الأمير واستشارته لم توجه إليك، وإنما وجهت إليّ أنا.

٢ ـ السرعة بالإجابة قبل البحث والتروي غلط.

٣ ـ آل سليم مع آل رشيد الدماء بينهم جارية، فكيف يؤمرهم ولئلا نقع في ورطةٍ أخرى فأنت عد إلى عنيزة ومن الغد عادوا إلى مجلسهم مع الأمير محمد بن رشيد، وإذا به قد ندم على رده القاسي على الخال حمد المحمد البسام، فصار يتكلم ويوجه الكلام إلى ابن عمه حمود العبيد ويقول: يا حمود ترى العقيم يعني حمد المحمد البسام شانف بعبد العزيز الزامل الصلاح يوم أنه يوصي به للإمارة جا بهذا الكلام للاعتذار، وأين حمد يا عم عبد الله؟ فقال العم عبد الله:

حمد يا طويل العمر صاحب فلانج وأرخصنا له يروح لفلانحه. ثم أعادوا المشاورة عن أمير لعنيزة فرد العم عبد الله الأمر إليه فصاروا يستعرضون أعيان البلاد. فجاء ذكر محمد الخليف وجاء ذكر عبد الله آل يحيى آل أبو غنام، وجاء ذكر غيرهما فتقرر الأمر على أن يكون الأمير: عبد الله آل يحيى آل أبو غنام.

الأمير محمد بن رشيد شكر البسام على موقفهم من هذه المعركة الحاسمة الكبرى والتي صارت فاصلة، فانقادت له البلاد النجدية كلها وبعدها تضاعفت فيها مساحة حكمه إلى مسافات بعيدةٍ وبلدانٍ عديدة. وصار للبسام من هذا الموقف نفوذٌ واسعٌ وكلمة نافذة وجاه عريض إلاّ أنهم لم يستغلوا نفوذهم ولم يستعملوا جاههم إلاّ في وساطات الخير والشفاعات المحمودة حتى في حق من أساؤوا إليهم، أو قصدوا بهم الشر مثل: حسن المهنا الذي يحرض زاملاً على أذيتهم وإهانتهم وإجبارهم على الخروج. وكان جواب زامل رحمه الله هم جماعتي وأنا أعرف بهم، وربما أنهم في عدم خروجهم ومحاولة إقناعي بعدم الخروج على صواب.

الدكتور محمد بن عبد الله السلمان في كتابه القيم: «الأحوال السياسية في القصيم»، ساق معركة المليدي سياقًا وافيًا وعرضها عرضًا جميلاً وحلَّل وقائعها تحليلاً سليمًا. وقارن بين رواياتها وخرج ــ غالبًا ــ من تلك المقارنة بنتائج مقبولة.

إلاّ أنه ذكر عن أحد رواته وهو إبراهيم الصالح العواد واقعة هي أن الوجيه عبد الله العبد الرحمن البسام كان يكاتب محمد بن رشيد عن أخبار أهل القصيم، وكان الرسول بينهما رجلاً يتنكر بزي إمرأة. والعم عبد الله في نهاية الأمر غضب من تساهل محمد بن رشيد وقال للرسول بينهما: قل لسيدك انتهت الخطابات فعتية ستنجد أهل القصيم، وعبد الرحمن الفيصل وصل الزلفي لنجدته، فهل مثل هذه الرواية العامية تقبل؟ هي لا تقبل ولا تستحق المناقشة؟ ولكن مناقشتها لا تضر فنقول:

أولاً: لماذا عبد الله العبد الرحمن البسام يبدي غضبه للرسول مشافهة ولا يكتب لابن رشيد كتابة فالرسول ربما لا يستطيع مشافهة سيده ابن رشيد بهذا، والكتابة أبلغ في الإخفاء بين الرجلين.

ثانيًا: أخبار الحرب والاستعداد لها ليست في عنيزة، وإنما في مركز القيادة حيث مقر ابن رشيد.

ثالثًا: ابن رشيد عنده من الامكانيات لتقصّي الأخبار أكثر مما عند ابن بسام، فالعيون والجواسيس يبثها في كل مكان.

رابعًا: الأمور مكشوفة أمام ابن رشيد فوصول الامدادات أمرٌ واضحٌ.

خامسًا: البسام ليسوا أعداء لزامل ولا يتمنون لجماعتهم

الشر، وإنما وجهة نظرهم أن بلادهم غنيةٌ عن التورط في الحروب وعواقبها وأهوالها.

الذي كدر الموقف تلك السنين التي بعد المليدي أن الكبير من أبناء زامل وهو عبد الله الزامل كان مختل الشعور، وقد توفي له ابن في جدة فخيل إليه أن البسام تتلوه بواسطة بيت تجارتهم التي في جدة.

فلمّا كان العم عبد الله العبد الرحمن البسام مارًّا أمام منزل هذا المختل، فخرج من منزله ومعه فرد غير صالح للرمي حاول إطلاق الرصاص منه على العم عبد الله، لكن الفرد لم ينطلق منه شيءٌ. فجاء إخوانه وبعض جماعته المقيمون في عنيزة واعتذروا عنه، فالعم عبد الله قبل منهم وطمأنهم بأن تصرفات عبد الله الزامل ما تكدر ما بيننا، وإنما الواجب هو حفظه عن مثل هذه الأمور.

العم عبد الله كتم الخبر عن ابن رشيد وعن غيره. لكن الخبر تسرب وربما إنه فخم أمره عند ابن رشيد، فما كان من أمر محمد ابن رشيد إلاّ أن بعث حسين بن جراد عام ١٣١٤هـ وقبضوا غالب المقيمين في عنيزة من السليم، وذهبوا بهم إلى حائل وحبسوا هناك.

سادسًا: تأخير نشوب الحرب ليس هو لابن رشيد حتى يغضب من أجله ابن بسام، وإنما التأخير جاء لتحصن أهل القصيم بكثبان رمال لا طاقة لابن رشيد بالقتال فيها. ولو بقوا

فيها وسلموا من خفة حسن المهنا وأتباعه ما صارت هذه النتيجة المشؤومة.

سابعًا: عتبته التي يزعم الراوي أن ابن بسام يحذر ابن رشيد من دخولها ويطلب منه المبادرة بإنشاب الحرب قبل وصولها هي مشتركة وحاضرة بزعيمها محمد بن هندي وهذال بن فهيد الشيباني. فشاعر بن رشيد أبو منيع يقول من قصيدة له:

القصيـــم انتشـــر مـــن مصيـــره
بـــالمليـــدي غـــدا بعـــذريـــره

شيـــخ بـــرقـــا نكـــس فيـــه ســـره
وأخـــو هملـــي يقـــود الكـــسيـــرة

فشيخ برقا محمد بن هندي، وأخو حملي هذال بن فهيد.

* * *

هوامش معركة الطرفية

* الموقع الطرفية الآن قرية زراعية تقع شمال شرق بريدة بمسافة ٢٧ كيلاً. صارت فيها المعركة بين مبارك الصباح وجنوده ومعه آل سعود وآل أبا الخيل الذين كانوا جالين عن نجد ومقيمين عند ابن صباح بالكويت. فالمعركة بين ابن صباح وبين عبد العزيز بن رشيد في ١٣١٨/١١/٢٧هـ.

* للمعركة أسبابٌ كثيرةٌ منها تمهيد ابن رشيد للاستيلاء على الكويت ومنها حصار ابن رشيد المادي للكويت حيث منع التعامل التجاري معه. ومنها وجود زعماء نجد عند ابن صباح في حال يتحرقون إلى الرجوع إلى أوطانهم وهم ضد ابن رشيد. تجمعت هذه الأمور فسهلت لابن صباح الزحف إلى نجد.

* خرج مبارك الصباح من الكويت ومعه اثنا عشر ألف مقاتل مجهز بأحدث السلاح وأجوده، وعلى قلب واحد في الرغبة في هزيمة عبد العزيز بن رشيد، فقطع ابن صباح من الكويت إلى حدود القصيم بمدة وجيزة حيث لم يجد معارضة ولا مقاومة، وإنما يمر ببلدان نجد فيطرد من كل بلد يمرها أمير ابن رشيد، ويولي من قبله أميرًا ويبعث إلى الكويت بانتصاراته.

* الإمام عبد العزيز بن سعود الفيصل مع بعض جنده في التنهات، وذهب إلى الرياض واحتله إلاّ قصر الحكم فقد تحصن فيه أمير ابن رشيد عبد الرحمن بن ضبعان، وبقي محاصرًا فيه حتى جاء خبر هزيمة ابن صباح، فعاد عبد العزيز بن سعود إلى الكويت وانفك الحصار عن الرياض لابن رشيد.

* آل سليم احتلوا عنيزة وحجز الجماعة بينهم وبين آل يحيى عن القتال، وبقوا فيها حتى صارت الهزيمة فعادوا إلى الكويت كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

* كثير من أهل القصيم فرحوا بمقدم ابن صباح وحلفائه وشايعوهم، ومنهم من تحفظ ومن هؤلاء المتحفظين أسرة البسام، فإنهم اكتفوا بأن بعثوا إلى ابن صباح مع شبابهم هدايا مناسبة، أما هم فلم يقابلوه وابن صباح لم يرضه هذا التهاون منهم به، وقال لماذا لم يأتوا بأنفسهم؟

* يقول المشاهدون إن ابن صباح لما وصل الطرفية وضرب مخيمه فيه كان جالسًا في مجلسه الكبير وحوله كبار المرافقين منهم: الإمام عبد الرحمن الفيصل، وآل مهنا، وزعماء القبائل. فصار يضرب بعصاه على الفراش ويقول: الذي يدلني على مكان ابن رشيد أعطيه هذا الفرس الصفراء، فصراحة العرب انطلقت هذال بن فهيد الشيباني أحد زعماء قبيلة عتيبة. فقال: يا شيخ الصفراء خلها في مربطها، وابن رشيد هو حاكم نجد، ولا بد أنه هو يدورك مثل ما أنك تدوره والعاقبة بيد الله. فلم يلبثوا بعد هذا الكلام إلاّ نحو الساعة وإذا بالسبور عائدة تقول هذا ابن رشيد أقبل.

لمّا وصل الأمير عبد العزيز بن رشيد إلى الطرفية نزل بجنوده تجاه جنود ابن صباح، ولكن أثناء تنزيل جنده منازلهم ركب هو فرسه ودار بجنود ابن صباح وضرب أيضًا في الفضاء مسافة بعيدة، ثم عاد وإذا بمجلسه قد اصطف فيه أعيان ابن الرشيد وأهل حائل ورؤساء القبائل وغيرهم من كبار مرافقيه فقال: الغزو وهيم كثير ـــ الله يكفينا شره ـــ ولكن ليس له كمين، فماذا ترون وكان يوجه الكلام إلى جميع الأعيان الحاضرين. فاختلف رأيهم فبعضهم قال: نحاربهم حرب ساقه فنقاتل ونحن مدبرون حتى نصل إلى حائل. وبعضهم قال: نطاولهم في هذا المكان، ونطلب شمر الجزيرة لتستمد بهم، وقالوا غير ذلك من الأفكار. وكان من الحاضرين عذبي الصباح فقال يوجه الكلام إلى عبد العزيز ابن رشيد: الليلة هذه توافق غدرة مبارك، وعقوقه بأخويه حينما قتلهما بفراشيهما، والعقوق عاقبته وخيمة وسيعاقبه الله تعالى بسبب غدره وقطعه الرحم، ولا لنا معه إلّا المواجهة الحاضرة. وكان هذا هو رأي الأمير عبد العزيز ابن رشيد فخبط بعصاه الفراش وقال: هذا هو الرأي الذي لا غيره، ولكن الذي يرى من نفسه الشجاعة فليوقف فرسه مع فرسي، فأوقف مع فرسه ستمائة فرس.

* جنود ابن صباح تقدر باثني عشر ألف، يتكونون من:

١ ـــ الإمام عبد الرحمن الفيصل ومعه آل مهنا أما آل سليم فلم يحضرها منهم أحد فقد شغلوا أنفسهم بالاستيلاء على عنيزة.

٢ ـــ قبائل الظفير، وقبائل مطير، وقبائل العجمان، وبنو هاجر، وآل مرة، وسبيع، والسهول، وقحطان، وعتيبة، والعوازم، والرشايدة، وعريب دار، وأهل الكويت.

* جنود ابن رشيد ما يزيدون عن ثلاثة آلاف. ثم إنه بعد إصدار التعليمات ظهر ١٣١٨/١١/٢٦هـ ساق المسيوق، وأنشب الحرب بين الطرفين واشتغل كل قبيل بقبيله، وصار الرصاص يتطاير بين الفريقين كالجراد وصار الجمعان يزحف أحدهما إلى الآخر. هذا وعبد العزيز بن رشيد والكتيبة المختارة على ظهور خيليهم ينتظرون التعليمات الأخيرة، فلما وصلت المعركة إلى هذا الحد قال القائد لفرسانه يشير إلى علم أخضر في جند ابن صباح: إن هذا العلم تحته ابن صباح، وعبد الرحمن الفيصل، وكبار القبائل، ونريد أن نغير غارة نتجنب فيها وجه المعركة، ونأتي جنود ابن صباح من المؤخرة ونشق طريقنا من الخلف حتى نصل إلى القلب الذي هو تحت هذاالعلم ونشرع بهم بالسيوف، ففعلوا فلم يفاجأ ابن صباح والكبار الذين حوله إلاَّ بغارة لم يحسبوا لها حسابًا من فرسان مخلصة في هجمتها مختارة في نفسها، فصارت أهم عامل بهزيمة ابن صباح وجنده، إذ اختلط حابلهم بنابلهم.

* عبد العزيز بن رشيد أشجع فارس ظهر في القرن الرابع عشر يعترف له بذلك محبه ومبغضه. ولكنه في يوم الطرفية أبدى شجاعة فائقة على شجاعته المعتادة منه. وعرض نفسه لموت محقق بلا مبالاة، ولا حذر فقد شهر نفسه بين جموعه وعلم على نفسه بلبس رداء أحمر وعمامة حمراء، وصار أمام قومه وقتل تحته سبع من الخيل، وتمزقت جبته من الرصاص. وفي هذا الموقف يقول العِزّي صاحب البرة:

عنـــده نـــزل حـــوض المنـــايـــا طليبـــة

عـــوق الحَـــريـــب اللـــي إذا زار مـــا هـــاب

عِقْـــر شـــلاب بـــه والأخـــرى عطيبـــة
مـــا هـــاب يـــوم النـــار شبـــت بتليـــاب
يـــذكـــر لنـــا فِـــرز السوعـــي شَـــق جيبـــه
والستـــر جـــرم عُقْـــب تَجـــديـــع الأســـلاب

ولكن كما قيل: كفى بالأجل حارس.

* صارت على ابن صباح هزيمةٌ ساحقةٌ، ولولا الليل الذي جاء معه عجٍ، وأمطار غزيرة لأبيد جيش الكويت كله.

* يؤخذ على ابن رشيد قسوته على فلول الغزو المجبرين على قتاله، والذين لا ذنب لهم، فإن ابن رشيد أخذ يتتبع هؤلاء الفلول ويجمعهم من البراري والقرى والمدن ويقتلهم صبرًا، ولم ينج منهم إلاّ الذين زَبَنوا عنيزة، فإن البسام زبنوهم ومنعوا أتباع ابن رشيد عنهم. وهذه القسوة من ابن رشيد هي التي جعلته لم يستفد من هذا الانتصار العسكري في مستقبل حكمه.

* لمّا حصلت الهزيمة على ابن صباح وآل سليم أمراء عنيزة من أتباعه أرادوا البقاء في إمارة عنيزة ومحاربة ابن رشيد، وهم بهذا يعلمون صعوبة الموقف، ويعلمون النتيجة لهذه المقاومة إلاّ أنهم يريدون البقاء مهما كلفهم الأمر، وكلف أهل عنيزة الثمن.

* أهل البلاد وبرأسهم في ذلك اليوم البسام لا يريدون ذلك لأمور:

أولاً: إن البلاد فيها بيعة لابن رشيد، ولا يجوز الخروج عليه.

ثانيًا: إن الذي خرج عليه وأراد نزع الملك منه هزم وبقي ابن رشيد على ولايته.

ثالثًا: بلدة واحدة في هذه المملكة الواسعة يصعب الصمود وحدها، لا سيما بعد هذا الانتصار الكبير.

رابعًا: إن مقاومة ابن رشيد في مثل هذا الظرف معناه تعريض البلاد لدمار وفناء هي غنية عنه بالمسالمة وإظهار الطاعة، ومن الأسلم لمن هم أعداء لابن رشيد تحين فرصة أفضل لهم من هذه، كما واتتهم في عام ١٣٢٢هـ، ولكنها فُسرت عن أسرة البسام بغير هذه المبررات مع أن البسام لا ينكرون ميولهم إلى ابن رشيد. ولكنه ميول بتعقّل والله من وراء القصد.

* ينقل الرواة أن ابن صباح حينما كان منهزمًا من المعركة إلى الكويت وبجانبه الإمام عبد الرحمن الفيصل على راحلتيهما التفت مبارك الصباح إلى الإمام عبد الرحمن فقال له: لعلك يا أبا فيصل قنعت الآن من نجد وطابت نفسك منها، فأجابه الإمام عبد الرحمن بقوله: إذا وصلنا الكويت أخبرتك، فألح عليه ابن صباح إلاَّ أن يخبره الآن، فقال له الإمام: إن كان ابن رشيد بعد هذا الانتصار عفا وسامح، واستعمل إحسانه وعفوه على المحسن إليه والمسيء، واستعمل مع الناس الرفق ولا عاتب أحدًا ولا جازى أحدًا فرجوعنا إلى نجد صعب جدًا، وإن كان استعمل القسوة والعنف والشدة ولم يرحم أحدًا، فإنًا بحول الله عائدون إلى نجد في مثل هذا اليوم.

وصدقت هذه الفراسة فإن ابن رشيد استعمل قسوة شديدة كرّهت الناس إليه. وإن الإمام عبد العزيز بن سعود لم يلبث بعد هذا الكلام إلاّ عشرة أشهر حتى عاد إلى الرياض واحتله.

* * *

هوامش حول السطوة احتلال عنيزة

* لما احتل الإمام عبد العزيز بن سعود الرياض في ١٣١٩/١٠/٥هـ، ثم توسع حكمه في عام ١٣٢١هـ إلى أطراف الرياض في الخرج والوشم نشط أمراء القصيم الذين في الكويت إلى الخروج لاستعادة بلدانهم وهم آل مهنا لبريدة، وآل سليم لعنيزة فخرجوا لاستعادة حكم أوطانهم.

* بلدة شقراء من بلدان نجد هي الموالية جدًا لآل سعود وأتباعهم، فارتحل إليها من الكويت آل سليم في رمضان من عام ١٣٢١هـ، واستقاموا فيها يراقبون الوضع ويكاتبون أصحاب الميول إليهم من أهل عنيزة. والذين وصلوا إلى شقراء من آل سليم خمسة رجال يمثلون الأربع أُسر فيهم، فعبد العزيز العبد الله يمثل آل يحيى، وصالح الزامل يمثل آل عبد الله، وعبد الله الحمد يمثل آل إبراهيم، وصالح العلي ابن أخيه سليمان آل يحيى يمثلان آل علي ومعهم سبعةُ وعشرون رجلاً من أهل عنيزة ساروا معهم من الكويت ما بين تابع منهم ومستخدم.

* آل سليم وآل مهنا لا يستطيعون دخول عنيزة وبريدة وحدهم الا بأمرين

أحدهما: مساندة قوة يلجأون إليها فيما لو فشلت محاولة الاحتلال، وقد استندوا إلى الإمام عبد العزيز بن سعود الذي قربهم من عنيزة ونزل على سورها في الجهيمة وليكون ردءًا لهم. الثاني: ميول أكثر أعيان البلاد معهم مما يسبب لهم سهولة الدخول ويسكت عنهم العامة. وقد تحقق ذلك فإن كل إقامتهم في شقراء لمدة أربعة أشهر كله تمهيد لذلك.
ثم حصل مع هذين الأمرين إهمال من حامية ابن رشيد بقيادة فهيد السبهان، ومن إمارة البلاد الذين ربط نشاطهم الدفاعي بأمر العم: عبد الله العبد الرحمن البسام فلم يفعلوا شيئًا اعتقادًا أنه على فرض دخول السليم فلن يحدث شرٌّ كما جرى في السطور السابقة عام ١٣١٨هـ.

* الذي حصل من استيلاء آل سليم على عنيزة هو قتل أمير البلاد حمد العبد الله آل يحيى بعد تأمينه. وقتل أخيه صالح أمير غزو البلاد، وقتل فهيد السبهان رئيس حامية ابن رشيد، وقتل محمد العبد الله الحمد البسام ونهب بعض بيوت البسام، واختفاء أعيان البسام تلك الأيام وتولى السليم إمارة البلاد هذه تمت بالأيام الأول من الاحتلال، وذلك في ٥/ ١/ ١٣٢٢هـ.

* آل البسام لما أطلت الفتنة على القصيم فيما بين ابن سعود وأتباعه آل سليم، وبين ابن رشيد وأمراء عنيزة من آل يحيى صار أعيان البسام يشيرون على كبير البسام العم عبد الله العبد الرحمن البسام أن يرحل معه أعيان أسرته إلى مكة المكرمة، أو إلى المدينة المنورة للبعد عن الفتن وعدم التدخل فيها بين أحد من الطرفين، إلاَّ أنه رحمه الله لم يرض، ولعله يظن أنه في بقائه يكون تهدئة للوضع أو يكون له شفاعةٌ حسنةٌ فيما لو تعرض أحد لتهديد من أحد الولاة كما فعل من قبل في

الاستيلاء الأول عام الطرفية، ولم يظن أنه سيجري عليه وعلى أسرته ما جرى، وهو الذي لم يعارض أحدًا في إمارته، ولم ينازعه بل إنه لم يعمل احتياطه للدفاع الذي هو قادر عليه ومخول له، ولكن الحسيب هو الله تعالى.

البسام اختفوا أيام السطوة ثم جرت المصالحة وصاروا في بلادهم عاديين لعدة أيام. ثم إن الإمام عبد العزيز بن سعود من منزله في عنيزة استدعى خمسة من أعيانهم، هم:

١ ــ العم عبد الله العبد الرحمن البسام.

٢ ــ ابنه: علي العبد الله البسام.

٣ ــ حمد المحمد العبد الرحمن البسام.

٤ ــ حمد المحمد العبد العزيز البسام.

٥ ــ محمد الإبراهيم العبد الرحمن البسام.

واحتفى بهم ولاطفهم ثم قال لهم: إن ابن رشيد ــ الآن ــ قد أقبل يشب حربًا لا تقل عن حرب الطرفية وأنتم أعزاء علينا، وأخشى أن الوشاة ينقلون إليّ كلامًا ما يرضيني عليكم وأسلم لكم من هذه الفتن أن تكون إقامتكم عند والدي في الرياض، وإلاّ فثقتي بكم متينة.

فقالوا: أمرك مطاع، فكتب بينهم عقد اتفاق وأمان حضره قاضي عنيزة الشيخ إبراهيم بن جاسر، وحمد المحمد العبد العزيز البسام. وفي ذلك اليوم ١٣٢٢/٢/٩هـ أرسل معهم الإمام مرافقين محترمين في أخلاقهم وآدابهم ليكونوا في خدمتهم برئاسة عبد العزيز الرباعي، وحملهم على خمسة عشر ذلولاً، وصرح لهم الرباعي أن الإمام يكرر

الوصية بإكرامهم وحسن صحبتهم وخدمتهم، فساروا بحفاوة وإكرام حتى وصلوا إلى الرياض. فلما وصلوا الرياض استقبلوا فيه من الإمام عبد الرحمن الفيصل ومن الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، ومن عموم أعيان الرياض بكل حفاوة وصاروا مطلقي الحرية في الرياض، وفي الزيارات والتجولات.

* وفي ٢/٢/١٣٢٣هـ أرسل أيضًا من أسرة البسام إلى الرياض ثمانية رجال فصاروا أربعة عشر، وهؤلاء الآخرون هم:

١ ــ صالح الحمد.

٢ ــ ابنه: عبد الرحمن الصالح.

٣ ــ محمد العبد المحسن.

٤ ــ سليمان العبد الله.

٥ ــ فهد العبد الله.

٦ ــ فهد الحميد.

٧ ــ محمد الإبراهيم العبد الرحمن.

٨ ــ فهد العبد الله العبد الرحمن.

وأقاموا جميعهم بعد وصول الأخيرين أربعين يومًا، وعوملوا بنفس ما عومل به السابقون من الحفاوة والإكرام. وبعد أربعين يومًا من وصول الدفعة الثانية أذن لهم بمغادرة الرياض. فالأعيان ومنهم أربعة من الأولين، وصالح الحمد، ومحمد العبد المحسن من الدفعة الثانية ذهبوا إلى البصرة عن طريق قطر، والباقون عادوا إلى عنيزة.

* لما نقل البسام إلى الرياض قلق كثير من رؤساء البلدان، وصاروا يكاتبون الإمام عبد العزيز بن سعود بخصوصهم. وممن كتب إليه

الشريف عون أمير مكة المكرمة، والمتصرف التركي في سوريا، وأشدهم حماسًا الشيخ قاسم ابن ثاني أمير قطر رحمه الله تعالى، ولكن الإمام عبد العزيز يجامل الشيخ مبارك بن صباح فلا يرى مخالفته. وسيأتي صفة خروجهم والمساعي التي بذلها الشيخ قاسم بن ثاني رحمه الله رحمة الأبرار حتى خرجوا في ٧/ ٤/ ١٣٢٣هـ، ووصلوا إلى البصرة في ١٥/ ٥/ ١٣٢٣هـ.

* البسام لما خرجوا من الرياض اتجه أعيانهم إلى قطر بدعوة من الشيخ قاسم بن ثاني، فاستقبلهم استقبالاً حافلاً، وأكرمهم إكرامًا يليق بهم وبه. وفي إحدى دعواته لهم إلى منزله صار هو الذي يصب الماء على يدي العم عبد الله العبد الرحمن البسام بعد تناول الطعام من حيث المصبوب على يديه، لا يشعر، لأن نظره قد ضعف. فلما أراد العم عبد الله أن يكفه عن هذا قال: يا عم عبد الله الذي فرق رأسي من العبيد ستون عبدًا، ولكن أحب أن أتشرف بالصب عليك وخدمتك. ذهب هؤلاء الأعيان من البسام إلى البصرة والزبير. فأما العم عبد الله فمكث أيامًا بالبصرة، ثم ركب بحرًا إلى جدة، ثم إلى مكة المكرمة، فأقام فيها حتى توفي فيها في ٢٥/ ١٠/ ١٣٢٥هـ رحمه الله تعالى. ولم يرجع إلى عنيزة من الخمسة الأولين أحد إلى عنيزة إلاَّ محمد البراهيم.

* البقية من البسام عادوا إلى عنيزة من الرياض، وأقاموا فيها، وقد أدركت بعضهم في طفولتي. إلاَّ والدي فإنه لم يعرف إلاَّ عام ١٣٧٣هـ، لأنه أصغر من حمل إلى الرياض سنًا رحمهم الله تعالى.

* * *